إهداء

إلى المؤمنين بأن العلم والمعرفة هما الطريق الوحيد لاستعادة والأمل وقهر الاستبداد والفساد والفقر

إلى أصحاب الأحلام الكبرى ... إلى شباب مصر الواعد في أرجاء المحروسة تمسكوا بالحلم فأنتم المستقبل والنجاح حليفكم

" لا تيأسوا لأن طريق الألف ميل قد بدأ فلا تتراجعوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب آمالكم المشروعة أدراج الرياح "

أحمد دراج

مقولة حاكمة

[من الواضح أن الإرهاب الإسلامي قد حل محل الإرهاب الشيوعي في تخويف الناس والحكومات. ويلاحظ أيضا أن عملية التمييع المتعمد والخلط بين الظواهر المختلفة تحدث هنا أيضا فيما يتعلق بالإسلام، كما حدث من قبل فيما يتعلق بالشيوعية. فالآن يوصف كل شيء يتعلق بالدين الإسلامي بالإرهاب، كما كان يوصف كل شيء يتعلق بالعدالة الاجتماعية بالشيوعية.] " جلال أمين– عولمة القهر"

المقدمة

الإرهاب ليس نبتا شيطانيا في الصحراء بلا بذور أو جذور، ولا هو ظاهرة انتقلت لنا عبر كائنات غريبة سقطت علينا بالأطباق الطائرة من كوكب آخر خارج المجموعة الشمسية، بل هو صناعة أيدينا وثمرة بطعم الدم وهو صناعة استغلت فيها عوامل وظروف اقتصادية ونفسية واجتماعية وثقافية وسياسية لتفريخ العنف من رحم التطرف الفكري بتعريض الهوية-أيا كانت- عربية ...إسلامية... غيرها، لضربات عنيفة وساحقة بفعل عصر العولمة الشرسة التي حولت الإنسان إلى مسخ أو روبوت آلي.

عندما تري غالبية العمليات الإرهابية تتركز في منطقة معينة من العالم- خلال بضعة عقود- فلابد أن تسأل لماذا ؟ وعندما تري الغالبية العظمي من الإرهابيين يرفعون الرايات السوداء التي يعلوها شعار " لا إله إلا الله محمد رسول الله " فعليك أن تتساءل لماذا ؟

في مثل هذه الظروف- قد يكون- من الضروري التوقف في محطات الرشد لالتقاط الأنفاس واستكناه الأسباب التي دعت

الإنسان الذي نشأ أو ترعرع في بقع جغرافية معينة– من العالم– إلـى التخلـي عـن الإنسـانية والرحمـة والحـوار كسـجايا فطريـة واجتماعية، وأحل محلها الاستقطاب والتوتر والغضب والكراهية بصور المختلفة.

ويندهش المرء من إصرار جماعات الحكم والمصالح – في المنطقة العربية–على تغذية أشجار الكراهية وإغلاق كل سبل الحوار وقبول الرأي الآخر مهما كانت درجة الاختلاف والتباين في الرؤى في ظل عالم مفتوح تغطيه الأطباق اللاقطة وتتعاظم فيه المعارف الإنسانية– كل لحظة– بصورة مذهلة ! ونتساءل : لماذا التشبث بإقصاء الآخر في الدين أو اللغة أو الطبقة أو الفئـة أو الجـنس ؟ وإلـي متـي تسـتمر رعايـة الفسـاد وتـزداد مساحات التجهيل والتعتيم والخداع ودفع زوارق الخوف نحو أتون المجهول ؟ وإلـى أيـن المصـير فـي عـالم يمـوج بـالعنف اللاإنساني الذي تتضاءل أمام وحشيته سلوك الضواري وتتراجع في حضرته كل الحيل الشيطانية إلى المرتبة العاشرة ؟.

وبما أن البحث إلحاح فكرة ما، فلماذا ومتى وكيف بدأت الفكرة الأولية ثم نضجت ؟ لقد نمت فكرة البحث الأولية من بضع مقالات نشرتها تحت عنوان عام عن العولمة والتدين الشكلي

وسياسات القهر والاستلاب الإنساني، وما نتج عنها من انتشار ظاهرة التطرف الحاضنة لمعظم أشكال الإرهاب المحلي والإقليمي، هذا المشهد الذي انتقل دوائر ضيقة ومحدودة إلى المشهد السياسي الدولي، ثم جمعت تلك المقالات في كتيب صغير (حوالي 135 صفحة) صدر عن الهيئة العامة للكتاب بعنوان " ثلاثية تفكيك المجتمعات المعاصرة " عام 2015، فأثار جدلا بين قرائه والمؤلف حول مفهوم التدين ودوره المظهري في استكمال ملامح ظاهرة الإرهاب المعولم، وتراءى لي بعد قراءته عدة مرات ومناقشة مضمونه مع بعض المهتمين بقضية التطرف والإرهاب– أن الكتيب الصغير صار بحاجة إلى إعادة النظر ليكون أكثر اتساعا وشمولا سواء بإضافة موضوعات وفصول أخري علي جانب كبير من الأهمية أو تنقيح ما يلزم، فكان هذا الكتاب الذي اقترحت له عنوان " صناعة الإرهاب عوامل ومحفزات .. العولمة والاستبداد والتطرف " موجات متلاحقة ومساحات مشتركة وقضايا ملتبسة ".

وقد تبين للباحث أن العولمة المعاصرة تتمييز عن صور العولمة البدائية أو الجينية بالتسارع الزمني واتساع المجال الجغرافي والاكتساح والغلظة التي انتهت بسقوط الأسوار السياسية

والإعلامية والثقافية، فهي عولمة مختلفة جذريا عن العولمات التي سبقت في مراحل أقدم يؤرخ لبدايتها بالعصر الهللينستي عند فريق من الباحثين([1]).

وأخيرا، أتمنى أن يثير الكتاب بأبوابه وفصوله تساؤلات أكثر عمقا وإجابات أكثر وضوحا لمواجهة موجات الإرهاب المتلاحقة في ظل انتشار الجهل والتطرف والاستبداد في بقاع جغرافية متنوعة يعد الشرق الأوسط أحد أهم بؤره الملتهبة، كما تعتبر العوامل الاقتصادية وغزو التكنولوجيا الفائقة والاحتكار عوامل أساسية ساعدت علي زيادة معدلات البطالة والفقر والاستغلال، هذا فضلا عما جلبته النظم السياسية الفاسدة المستبدة من دمار علي شعوبها العاطلة وحكوماتها العاجزة عن التنمية والإدارة الحديثة، نحن الآن أكثر احتياجا لإجابات حاسمة تحاصر التطرف والانحراف وتحد من حجم الكراهية والتفسخ والجنون الذي يحاصر العالم من قلبه إلى أطرافه.

أحمد دراج

---

[1] في عصر التنوير الهللينستي 300 عام قبل الميلاد أعطي الرواقيون فكرة أن البشر جميعا مواطنون عالميون في الكون مهما كانت أصولهم الاجتماعية ومواقعهم الجغرافية، وكان حلم (زينون) بوجود عالم واحد ليس مقسما ولكنه يقع تحت سلطة شرعية واحدة وقانون واحد برضائهم... بالحب. للمزيد ينظر : إلياد، مرسيا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، ص 222-223

مفاهيم المصطلحات الأساسية

يفضل الباحث أن يبدأ بتعريف المصطلحات الأساسية مثل : العولمة والإرهاب والتطرف والتأسلم، وقد اختصها بالأولوية في صدر هذا البحث، رغم أهمية مصطلحات أخرى مثل الثقافة والتماسك والتفكك الاجتماعي وغيرها لأسباب موضوعية.

ومن البدهي أن تتصدر المفاهيم الإجرائية بناء قواعد التفاهم بين المؤلف والقاريء الكريم لتأسيس قواعد فهم منطقية مسبقة لمعالجة موضوع البحث؛ لأن البحث في قضية العولمة والإرهاب يقتضي التركيز على دورهما في تقويض التماسك الاجتماعي في ظل الدولة الحديثة والنظام العالمي الجديد، والحديث عن العولمة وتأثيراتها الاجتماعية يتطلب تحديد مفاهيم الثقافة ومقوماتها وهذا هو ما دفعني لاستهلال البحث بها وتحديد مفاهيمها أولا، ولا يعني ذلك أنني تجاهلت المفاهيم الأخرى المتصلة بها مثل : التماسك الاجتماعي، أو الدولة والأمة أو الدين والتدين، ولا غيرها من المفاهيم التي تجلى جوانب أخري في هذا البحث، وسنبدأ بها حسب أهميتها علي النحو التالي.

1- العولمة

طرح الباحثون تعريفات متعددة للعولمة، حيث يشير مفهومها اللغوي إلى " تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله "، أو المدى الذي تنتشر فيه تلك التوجهات " الانتشار الجغرافي "([2]) أما مفهومها الاصطلاحي فقد أصابه التطور عبر مراحل تجذير العولمة في العالم، ومن بين المفاهيم الاصطلاحية للعولمة في أعم معانيها " دمج العالم وتكثيف الوعي به "([3])، ومن المفاهيم السائدة لها " وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن إلى نقطة الانتقال من دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها،... والعولمة بهذا المعنى هي رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملة على مستوى النمط ومظاهره... [والعولمة] تعيد بالتالي إنتاج نظام الهيمنة القديمة للرأسمالية العالمية ونجاحها في شكلها الثقافي الاجتماعي المؤمرك([4]).

إن أيدلوجية العولمة التي كانت ذات تأثير عدواني محدود على ثقافة المجتمعات وبنيتها في عصور غابرة؛ تحولت في هذا

---

[2] - إيان كلارك، العولمة والتفكك " مركز الإمارات للدراسات ص 8

[3] - علاء عبد الهادي، عولمة الثقافي، ثقافات، دورية ثقافية ص 3

[4] - علي ليلة، الأمن القومي في عصر العولمة، اختراق القافة وتبديد الهوية 1/ 18-19

العصر إلى جرافات ولوادر وحفارات تنقض على بنية المجتمعات؛ وتحولها إلى ركام بعد أن تخترق المجتمع وتغرس في بنيته عناصر غريبة عليه ومتناقضة مع مكوناته وعناصره القومية الأساسية التي نمت طبيعيا معه، بخلاف العناصر الدخيلة المفروضة عليه قسرا بواسطة ماكينة إعلامية جهنمية([5]) لنجد أمامنا بقايا وأنقاض.

والنتيجة النهائية لمفهوم العولمة أنها ليست عولمة واحدة فحسب، بل هي مفاهيم متنوعة على مصطلح ظل ثابتا رغم تباين المفاهيم، والأرجح – في رأيي– أن العولمة البدائية كانت شيئا مختلفا عما نراع اليوم والأنسب أن نظيف إلى لفظ العولمة لفظا آخر يحدد وصفها في عالم اليوم، وقد يكون لفظ المتوحشة هو المعبر بدقة عن عولمة ما بعد الحداثة.

2– الاستبداد

الاستبداد في اللغة : هو غرور المرء برأيه وحده، والاستقلال في اتخاذ القرار فيما يتعلق بالحقوق المشتركة، والتكبر على النصيحة.

[5] - ينظر :علي ليلة، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة 2/ 25

وفي الاصطلاح السياسي هو تصرف فرد أو عدد محدود من الأفراد (الأوليجاركا) في مصير مجتمع ما وحقوقه بالمشيئة المنفردة بدون خوف من تبعة ذلك التصرف من حساب أو عقاب، وهي صفة تنطبق علي الحاكم الفرد أو الحكومة بالوراثة أو الغلبة([6]).

ويقول " أحمد برقاوي "([7]) لو أننا أجبنا عن سؤال ما الاستبداد ؟ بأنه بنية، لكانت الإجابة صحيحة، وهذه البنية تتألف من: قاهر يعبر عن الذات المستبدة، ومقهور عن الذات المستبد بها، وتحدث العلاقة بينهما في شرط تاريخي محدد، فإذا تمردت الذات علي الشرط التاريخي فإن هذه البنية تتفكك.

والاستبداد حسب الكواكبي([8]) أنواع أحطها استبداد الجهل علي العلم، واستبداد النفس علي العقل، وللاستبداد درجات أشدها حكومة الفرد المطلق الوارث للحكم أو القائد للجيش أو الحائز علي سلطة دينية، وكلما تخففت من وصف من هذه الأوصاف صار الاستبداد أخف وطأة حتي يكون الحكم بالانتخاب لحاكم مؤقت قابل للمساءلة وتداول السلطة.

---

[6] - ينظر : عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ص 16- 17

[7] - " ": أحمد برقاوي، ثقافة النخبة وثقافة الرعاع- دفاعا عن مركزية الذات ص 8

[8] - " " : عبد الرعمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ص 17 - 19

3- الثقافة

يعد مصطلح الثقافة من أكثر المصطلحات المستخدمة في العلوم الاجتماعية التباسا وضبابية، وهي من تلك المفاهيم التي أثارت جدلا واسعا بسبب اتساع مجالها وتنوعه.

فمن الملاحظ أن كل أفراد الجنس البشري يشتركون في بعض السمات والخصائص، في نفس الوقت الذي تشترك فيه مجموعة من الناس في سمات تختلف مع جماعات أخرى، ومع ذلك فإن لكل شخص سمات خاصة تميزه عن غيره، وبهذه الطريقة يمكننا تقسيم الخصائص الإنسانية إلى ثلاثة أنواع([9]):

- خصائص عالمية للجنس البشري
- خصائص توفيقية للشخص
- خصائص حصرية لعضوية في الجماعة

فالسمات والخصائص والسلوكيات التي ليست عالمية ولا توفيقية تسمى " ثقافة "، ومن ثم فإن لكل جماعة ثقافتها الخاصة تعبر عنها مجموعة من القيم والمعتقدات التي تحرك السلوك الجمعي لها.

[9] - ينظر : عمانويل فالرشتاين،الثقافة كمعترك أيدلوجي ص 33

وكما أن لكل جماعة ثقافتها الخاصة فإن الثقافة هي الطريقة التي تتميز بها جماعة عن جماعات أخرى، أي أنها تقوم على المشترك بينهم، ومن زاوية أخرى تكون الخصائص غير الشتركة من أسباب نفي انتماء الجماعات الأخرى لهذه الثقافة وفق تمايز خصائص كل منها.

4-الهوية

الهوية لفظ مشتق من الضمير " هو " وهي الإجابة عن سؤال الماهية أو الذات : من أنا ؟ من نحن، وهي في تعريف آخر مجموعة من السمات والخصائص التي تتوفر في شخص ما ووعيه بذاته.

وتعريف الهوية يضم الاسم والملامح والصفات والجنسية والعمر وتاريخ الميلاد أو مجموع السمات التي تميز جماعة من البشر عن غيرها في اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ والعادات والتقاليد، وربما تتوفر تلك السمات المميزة في شيء ما تميزه عن شيء آخر. وسؤال الهوية هو تساؤل قديم وجديد ومتجدد أي أن

الهويـة غيـر ثابتـة وتكـون قابلـة للتحـول والتبـدل حسـب ظـروف الواقع المتجدد([10]).

وفي تعريف آخر للهوية يقول رشاد الشامي إنها " الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتمياً إلى تلك الجماعة، وهي شفرة تتجمع عناصرها العرقية على مدار تاريخ الجماعة(التاريخ) من خلال تراثها الإبداعي(الثقافة) وطابع حياتها(الواقع الاجتماعي) بالإضافة إلى الشفرة تتجلى الهويّة كذلك من خلال تعبيرات خارجية شائعة مثل: الرموز، الألحان، العادات، التي تنحصر قيمتها في أنها عناصر معلنة تجاه الجماعات الأخرى، وهي أيضاً التي تميز أصحاب هويّة مشتركة عن سائر الهويّات الأخري ولكنّ الملامح الحقيقية للهويّة هي التي تنتقل بالوراثة داخل الجماعة، وتظل محتفظة بوجودها وحيويتها بينهم مثل :الأساطير والقيم والتراث الثقافي"[11].

[10] للمزيد عن سؤال الهوية في الرواية العربية ينظر : صلاح السروي، المثاقفة وسؤال الهوية ص 93 وينظر : علاء عبد الهادي، شعرية الهوية ونقض فكرة الأصل ص 4-5

[11] رشاد عبد الله الشامي، إشكالية الهوية في إسرائيل – عالم المعرفة ص 7

ومكونات الهوية وفق التعريفات السابقة هي : الموقع الجغرافي، والاقتصاد المشترك، والذاكرة التاريخية المشتركة، والثقافة الموحدة، والحقوق والواجبات المشتركة.

5- التفكك

التفكك مصدر من الفعل " فكك " على وزن " فعّل، تفعل الذي يعني لغويا : فصل أجزاء الشيء عن غيره، ويقال فك الأسير بمعنى خلصه وأزاله عن موضعه([12])، والتفكيك في معناه الواسع نقد للميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة([13]) وللتفكيك مظاهر متعددة منها الفلسفي ومنها السياسي أو الفكري ومنها الأدبي([14])، أما اصطلاحيا فيعني العمل في اتجاه عكس كثافة التفاعلات من خلال بعدين هما : التفتت والسيادة المطلقة والتشرذم والأحادية والانغلاق والانعزال، ويقصد بها من زاوية أخرى تضخيم المسافات المكانية والانفصال والتوجه نحو القومية أو الإقليمية([15])،هذه العمليات المختلفة تحدث على مستويات متعددة داخليا وإقليميا لأنها تؤثر في تماسك الدول.

---

[12] - مجمع اللغة العربية، المجم الوسيط مادة (فك)

[13] - ينظر : ميشيل رايان، مدخل إلى التفكيك ص 25

[14] - المرجع السابق ص 105

[15] - ينظر: إيان كلارك، العولمة والتفكك ص 8

6-التطرف والعنف والإرهاب

يخلط بعض من المثقفين وكثير من العامة بين مفاهيم العنف والإرهاب كنتيجة من نتائج الفكر المتطرف أو المنحرف، الذي يبدأ بالعنف اللفظي القولي/ والمكتوب ويتدرج إلى أن يصل إلى مرحلة الإرهاب وارتكاب جرائم القتل الفردي ثم يصل إلى المذابح والمجازر الجماعية، ونحاول من خلال تعريف الظواهر الثلاث وضع خطوط فاصلة بينها لمنع التداخل والالتباس.

أ-التطرف

التطرف لغة هو نقيض الوسط والوسطية، ويقصد به الاندفاع في الشيء نحو أقصي أطرافه، وحدوده، وفي الاصطلاح ظاهرة سلوكية مركبة ومعقدة وتعريفها المبسط " مجموعة منالمعتقدات والاتجاهات والمشاعر والأفعال والاستراتيجيات ذات الطبيعة البعيدة عن الحد المعتدل "([16])، والحقيقة أن الحكم بالتطرف أو الاعتدال غالبا ما يتصف بالطابع السياسي والذاتي.

ولذلك فإن الفعل الذي يوصق بالمتطرف عند جماعة ما، قد يراه البعض الآخر فعلا عادلا وقانونيا، ولنا في الانتفاضة الفلسطينية

[16] "Extremism", *Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/Extremism.

خير شاهد علي تباين توصيف ظاهرة المقاومة للاحتلال، فهي عند المجتمع الإسرائيلي والأمريكي والغربي فعلا متطرفا، بينما يراه الفلسطينيون والعرب فعلا طبيعيا للدفاع عن الأرض، وربما يكون هذا بين الأطراف المتصارعة علي الحكم في دولة ما مثل " انتفاضة الخبز " التي انطلقت في مصر في 17، 18 يناير 1977 بسبب زيادة الأسعار ورآها الشعب المصري مطالبة بالحق المشروع بينما رآها السادات ونظامه فعلا متطرفا من الرعاع وأطلق عليها " انتفاضة الحرامية ".

ب-العنف

تعتبر ظاهرة العنف أول مأزق وقعت فيه البشرية واكتوت بنارها منذ خلق الله آدم لتسطر قصة قابيل وهابيل أول حادثة عنف بشرى اقترفها قابيل ضد أخيه هابيل، وهذا ما تنبأت به الملائكة عندما أخبرهم الخالق جل شأنه قائلا : إني جاعل في الأرض خليفة، فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال تعالى : إني أعلم مالا تعلمون، واستمرت قصة العنف وانتقلت من طورها البسيط إلى أطوار أكثر تعقيدا في المجتمعات الإنسانية، ويعتمد هذا السلوك العنفي على انعدام قدرة الفرد / الأفراد على الحوار والتواصل، وتداعي

آليات الإقناع العقلي، مرورا بالإقصاء والنفي، وعندما يعجز العقل عن الحوار ويتحصن بأيدولوجيا متطرفة تتحدث القوة الغاشمة لتأذي الآخر باللسان لفظا أو باليد أو بالآلة، فالحروب تبدأ في الرؤوس قبل سل السيوف([17]).

ويختلف في مفهوم العنف حسب أشكاله وآثاره ومدى جسامة الضرر الذي يلحقه بالمعتدى عليه سواء كان كائنا حيا فردا أو جماعة أو حيوانا أو منشأة، والتعريف الاصطلاحي المختصر للعنف " كل ممارسة للقوة عمدا وجورا "([18]).

وأرجح أن يكون مفهوم مصطلح العنف ذو طبيعة فردية وفق هذا التعريف، أما إذا انتقل العنف المادي إلى الممارسة والفعل الجماعي فيكون أقرب إلى مصطلح الإرهاب.

ج-الإرهاب

رغم تطور مفهوم مصطلح الإرهاب من جيل إلى جيل وبدرجة يصعب معها الحصر إلا أن الخيط المفهومي الناظم لتعريفه يقول إنه " الاستعمال المخطط له للعنف أو التهديد باستعمال العنف من أجل تحقيق أهداف سياسية أو دينية أو أيدلوجية من

[17] - ينظر : يوسف محمد بن ناصر، ثقافة العنف واللاعنف في الفكر الإسلامي ص 3

[18] - Alain Peyrefitte" Reponses a la violence P629

حيث طبيعتها... وذلك باستخدام التهديد أو الابتزاز أو بذر بذور الخوف "([19]) وفي تعريف آخر : هو كل عمل أو سياسة تستخدم فيها القوة المادية والنفسية لإشاعة الذعر والهلع وإزهاق أرواح الأبرياء وتجريدهم من أرضهم وممتلكاتهم ويعرضهم للإبادة الجماعية، وقال آخر إنه " أسلوب عمل طبيعته نشر الخطر العام .. ويهدف إلى تقويض وهدم أسس كل بنيان اجتماعي " أو إنه " كل نظام مؤسس على الرعب سواء من الحكومة أو الثوار أو الأحزاب المتطرفة ([20]).

إذن الهدف الرئيس للإرهاب هو تقويض أسس البنية المجتمعية، على أساس أن تماسك المجتمعات هو قاطرة البناء والاستقرار والنمو بين مكونات هذا المجتمع وعناصر بنيته، ولكن الأكثر خطورة أن تقنن الدولة الأكبر في العالم ممارسة الإرهاب ضد خصومها السياسيين في الدول المناوئة لها كما حدث في أفغانستان والعراق وسوريا وفلسطين.

7- التأسلم

[19] - نعوم تشومسكي وآخرون، العولمة والإرهاب، ص 121

[20] - محمد مؤنس محب، الإرهاب في القانون الجنائي على المستويين الوطني والدولي ص 16- 75

التأسلم مثل التدين، مشتق من المادة " سلم " الثلاثية، فإن التأسلم شكل من أشكال التفعل والتصنع، كما أن التدين ليس هو الدين، بل هو شكل من أشكال التصنع والتعصب والتطرف في الدين، أيا كان هذا الدين، وهكذا التأسلم الذي يعبر عن فهم خاص للإسلام وتأويل النص تأويلا منحرفا عن مقاصد الإسلام وشريعته السمحة ، فالقرآن الكريم كنص لم يتغير منه حرف واحد عبر التاريخ منذ نزوله، وتعاورت عليه الأجيال عبر الأزمان وتغيرت الشعوب وهو ثابت محفوظ قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وظل الفهم والرأي قابلا للتبدل والتغير، حيث تتدخل المفاهيم المختلفة والدلالات المتطورة في المكان والزمان، وتعدد المصالح والأهواء في تفسيره وتأويل معانيه بين الشكل والمضمون، أما الفهم الصحيح للنص القرآني فلا يمكن أن يتناقض مع آياته الأخرى بامتداد النص المقدس باعتبار المصدر الواحد.

لقد أدرك فقهاء الأمة – في العصور الأولى للإسلام–خطورة التشبث والتعصب لصحة الفهم وسلامة الرأي على الدين الإسلامي فقال الإمام الشافعي " رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب "، وقال الإمام أبو حنيفة " رأينا هذا

هو أفضل ما قدرنا عليه، ومن جاءنا بأفضل منه قبلناه "، وقال الإمام مالك " كل ابن آدم يؤخذ منه ويرد ماعدا صاحب هذا القبر " وأشار إلى قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويفرق ابن المقفع بين الدين والرأي فيقول " الدين تسليم بالإيمان والرأي تسليم بالخصومة، فمن جعل الدين رأيا، جعله خصومة، ومن جعل الرأي دينا جعله شريعة "([21]).

ويتعجب المرء من تجاهل هذا الانفتاح على الآخر عند هؤلاء الأئمة المسلمين وأصحاب الرأي قديما، بينما يشاهد هذا التطاحن القائم على التعصب في مطلع الألفية الثالثة بين بعض مدعي العلم وعامة المسلمين، فلأي عقل خضعنا ؟ وبأي فكر استرشدنا ومنه متحنا ؟

إن الرأي هو تعبير عن الفهم الخاص للفرد أو الجماعة، فإذا كان الجميع يؤخذ منه ويرد، حيث يؤخذ منه الصالح المتوافق مع مقاصد الدين الإسلامي، ويرد إليه المخالف لدين الله عز وجل، فالمقدس لا ينبغي أن يخلط بالرأي الإنساني وإلا.... فالنتيجة معروفة سلفا، وها نحن نري نتائجها دماء وأشلاء ضحيتها – في الغالب– من المسلمين!!!.

---

[21] - رفعت السعيد، الصراع بين الإسلام والتأسلم ص 17-18